

هل الإسلام يتعارض مع الديمقراطية وحقوق الإنسان؟

يناقش المستشرق البريطاني فريد هاليداي الاتهام الموجه إلى الإسلام في الغرب بأنه دين يتعارض مع مبادئ حقوق الإنسان بمفهومها الحديث، فيقول: إننا يجب أن نفهم حقيقة الإسلام، فهو ليس مجموعة طقوس وشعائر فقط، أي إنه لا يقتصر على أمور العبادات، ولكنه - بالإضافة إلى ذلك - يتناول شؤون الحياة ومشكلاتها، فهو قانون للحياة.. وفوق ذلك فإن الإسلام لا يؤيد الإصلاحات الجزئية أو الحلول الوسط، ونقطة البداية في الإسلام أن يكون الإنسان على وعى كامل بمكانته الفريدة في هذا الكون، وليس مجرد مخلوق من مخلوقات الله، ولكنه أهم مخلوقات الله، فهو - بنص القرآن - خليفة الله في الأرض، فهل بعد هذه المنزلة منزلة؟ ومن خلال الوعى بعلاقة الإنسان بالكون، وعلاقة الإنسان والكون بالله يستطيع الإنسان - ذكرا أو أنثى - القيام بوظيفته في هذا العالم.

وبالنسبة لأية دولة مسلمة، فإن القضية الأكثر أهمية لحقوق الإنسان ليست فقط تحريم التمييز بين البشر بسبب اختلاف اللون، أو الجنس، أو الثقافة، لأن الإسلام أكد على حماية الأفراد من انتهاك الدولة لحقوق كل إنسان يعيش على أرضها. وهذا ما جعل الدول الإسلامية توجه النقد إلى سياسات الدول الغربية، وإلى الأمم المتحدة لازدواجية المعايير في مواقفها، كما توجه النقد أيضا إلى دول الغرب عموما في أمرين:

أولهما - إهمال الدول الغربية للحقوق الاقتصادية للإنسان الفرد وللدول الفقيرة التي استنزفت الغرب ثرواتها.

وثانيهما - ضغوط الدول الغربية على الشعوب والحكومات العربية والإسلامية لفرض القيم الغربية وطمس القيم الإسلامية.

وفي مؤتمر حقوق الإنسان نظمته الأمم المتحدة في فيينا عام ١٩٩٣ تقدمت الدول الإسلامية بوثيقة مهمة هي (إعلان القاهرة عن حقوق الإنسان في الإسلام) الذي أقره المؤتمر الإسلامي في

عام ١٩٩٠ شاركت فيه حكومات الدول الإسلامية. وفي هذا الإعلان تأكيد على أن حقوق الإنسان في الإسلام نابعة من القانون الإلهي أكثر من القانون الذي يضعه البشر، وفي هذا الإعلان تأكيد على موقف الإسلام من أربع قضايا أساسية هي: حقوق المرأة، وموقف الإسلام من المخالفين له في العقيدة، وموقفه من المرتدين، والشروط الواجبة لإقامة الحدود.

فالإسلام يقرر معاملة غير المسلمين بنفس معاملة المسلمين دون تفرقة أو تمييز. ولكن هناك مشكلة تجعل الغربيين يسيئون فهم الإسلام، وهي أن كثيراً منهم يبني فهمه للإسلام في إطار الصراع التاريخي بين الحضارة الغربية المسيحية والحضارة الإسلامية، ولذلك نجد الحديث عن الإسلام عند كثير من الغربيين هجوماً وعدوانياً. والذين يدعون مُعاداة الإسلام لحقوق الإنسان مقارنة بالمفاهيم والمبادئ الحديثة لحقوق الإنسان فإنهم يظلمون الإسلام عن عمد، لأن المقارنة ليست عادلة، ففي القرون الماضية لم يكن في حضارة الغرب المسيحي احترام لحقوق الإنسان. ولم يصدر الإعلان العالمي لحقوق الإنسان إلا في عام ١٩٤٨، كما لم تصدر القوانين التي تحمي حقوق الإنسان استجابة لهذا الإعلان إلا في السبعينات والثمانينات من القرن العشرين، بل إن مبادئ حقوق الإنسان - بمفهوم اليوم - ظاهرة حديثة لم تتبلور إلا بعد عام ١٩٩٥. ومع ذلك فإن الغرب ما زال يتجاهل حقوق الإنسان المسلم في فلسطين، وكشمير، والبوسنة، وما زال المسلمون في المجتمعات الأوروبية يجدون معاملة لا تتفق مع حقوق الإنسان، بينما الاعتداءات على حقوق الإنسان في الدول الإسلامية هي التي توجه إليها انتقادات شديدة من منظمات حقوق الإنسان ومن الحكومات الغربية، وبخاصة من الولايات المتحدة منذ عهد الرئيس الأسبق جيمي كارتر والإدارات التالية بعده، ووصلت الضغوط الأمريكية على الدول الإسلامية إلى ذروتها في عهد الرئيس جورج دبليو بوش بحجة عدم احترام حقوق الإنسان، وفعلت ذلك بالتزامن مع لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة.



ويرى هاليداي أن هناك أربعة محاور تميز الخطاب الإسلامي عن حقوق الإنسان يحددها كما يلي: الاستيعاب Assimilation والخصوصية Appropriation - والإقليمية Particularism - والمواجهة Confrontation ويمكن أن يضاف إليها محور خامس هو: التنافر أو عدم التوافق Incompatibility - وهذه المحاور أو الاتجاهات الخمسة تحكم اتجاهات الذين يتحدثون عن حقوق الإنسان في الإسلام.

فالاستيعاب ظاهرة في العالم الإسلامي تجعلنا نستنكر وجود أي صراع حقيقي بين الإسلام والمفهوم العالمي الحديث لحقوق الإنسان، وذلك واضح في التفسير المعاصر للنصوص الإسلامية الذي ينجح في تقديم مفهوم إسلامي لحقوق الإنسان يتفق مع المفاهيم الحديثة. وهذا التفسير الحديث للنصوص أخذ في الانتشار في مواجهة التفسيرات المتعصبة القديمة.

والخصوصية يقصد بها هاليداي أن الخطاب الإسلامى يطرح رؤية خاصة تقوم على أن الإسلام يحترم حقوق الإنسان بدرجة أكبر من الدول الأخرى. وهذا الاتجاه يتخذ أحياناً صورة هجومية تكشف الانتهاكات في الغرب لحقوق المرأة، والأقليات، وكبار السن. بينما الدول الإسلامية أكثر تقدماً في مفهوم حقوق الإنسان ليشمل القضايا العالمية الأخرى مثل معاداة العنصرية، وحماية البيئة. ومن خلال المؤتمرات والتصريحات تسعى الدول الإسلامية لتوضيح رؤية إسلامية مميزة تدل على أن النظرية الإسلامية، والممارسة الإسلامية يمكن لهما إثراء مبادئ وقيم حقوق الإنسان المنصوص عليها في المواثيق الدولية. وبعض الإسلاميين يرون أن الإسلام هو الذى يمكن أن يقدم للبشرية الممارسة الكاملة لحقوق الإنسان. وفى هذا السياق صدر الإعلان الإسلامى لحقوق الإنسان فى عام ١٩٨١ الذى ينص على أن النظام العالمى يجب أن يقوم على مبادئ إنسانية عامة ترفض التفرقة بين البشر على أساس اللون، أو العنصر، أو الجنس، أو الثروة، وأن الأخوة الإنسانية فى صورتها المثالية تتحقق فى مبادئ الإسلام. وفى إعلان القاهرة أن البشر متساوون أمام الله ولا فرق بين إنسان وإنسان إلا بالتقوى، وإن كان هاليداي يلاحظ وجود اختلافات فى هذه الوثائق بين النسخة العربية والنسخة الإنجليزية. والاقليمية تتمثل فى رد الدول الإسلامية على النقد الموجه إليها فى مجال حقوق الإنسان بأن المجتمعات الإسلامية بحكم ظروفها الجغرافية والتاريخية والسيولوجية لها خصوصية تاريخية وثقافية. وأن التقاليد والعقائد فى المجتمعات الإسلامية تجعل بينها وبين المجتمعات الغربية اختلافات لا بد من مراعاتها والاعتراف بها. وهذا ما تعلنه دولة مثل السعودية التى لا تسمح للمرأة بقيادة سيارة، أو بإعطاء صوتها فى الانتخابات المحلية، أو بالاشتراك فى عضوية مجلس الشورى المعين الذى أنشئ عام ١٩٩٢. ويشير هاليداي إلى لقاء صحفى أجرى مع الملك فهد قال فيه: إن النظام الديمقراطى السائد فى العالم لا يناسبنا فى هذه المنطقة، فالإسلام هو قانوننا الاجتماعى والسياسى، وهو دستور كامل يشمل نظام الحكم والقضاء. كذلك تدافع إيران عن خصوصية مجتمعها واختلافه عن المجتمعات الغربية على أساس أن له خصوصية مصدرها خصوصية الإسلام. ويؤيد هذا الاتجاه انتشار (الأسلمة Islamization).

والمواجهة تتمثل فى تشدد تيار الإسلام السياسى فى معاداة الامبريالية والهيمنة الغربية، والثقافة الغربية. والقوانين المدنية التى يعتبرها تيار الإسلام السياسى قوانين استعمارية، انطلاقاً من معاداته لكل فكر وكل مفهوم غير إسلامى. وهذا التيار يرى أن كل تشريع يجب أن يكون مصدره الشريعة الإسلامية. وهذا الرفض لكل قانون أو نظام لم يرد به نص فى الشريعة الإسلامية يمثل تياراً من التيارات المؤثرة فى العالم الإسلامى.

أما الاتجاه إلى عدم التوافق أو التناظر فهو موجود لدى هذا التيار الإسلامى المتشدد وهو يعنى الإيمان بوجود صراع لا مفر منه بين الإسلام والقيم الغربية.

أما هاليداي فإنه يرفض نظرية وجود تنافر أو عدم توافق بين الإسلام وحقوق الإنسان بالمفهوم الحديث، ويبرر ظاهرة التنافر هذه بحالة الكراهية في العالم الإسلامي للزعة الامبرالية والهيمنة من العالم الغربي. ويرفض كذلك الادعاءات التي يرددها أعداء الإسلام في الغرب بأن في القرآن آيات تتعارض مع مبادئ حقوق الإنسان، أو أن الإسلام دين التعصب والديكتاتورية، ويقول: إن أصحاب هذه الادعاءات يتصيدون تفسيراً أو رأياً أو نصاً مقتطعا من السياق لتبرير ادعاءاتهم. وهناك أيضا حكام يستخدمون النصوص وفق رؤيتهم لإحكام سيطرتهم على السلطة بادعاء أن هذا هو الإسلام وأنه مختلف عن غيره. لذلك ينبه هاليداي إلى ضرورة التفرقة بين المفاهيم الإسلامية الصحيحة والمفاهيم التي تروجها نظم الحكم الديكتاتورية الحديثة التي تتستر بالإسلام.



ويتحدث هاليداي عما يسميه (النسبية الثقافية) ويرى أن الذين يوجهون النقد إلى النظم السياسية والاجتماعية في العالم الإسلامي لا يضعون في اعتبارهم هذه النسبية الثقافية، أي إن هناك اختلافات بين ثقافة المجتمعات نابعة من طبيعة كل مجتمع وظروف تطوره التاريخي، وكل محاولة لفرض ثقافة واحدة على جميع المجتمعات في العالم ليست سوى (الحلم المستحيل) لأن المراحل التاريخية، والأحداث، ودرجة التطور العلمي والتكنولوجي والديني، ليست واحدة في كل دول العالم. ولذلك يرفض هاليداي فكرة وجود (قيم عالمية) ويقول: هناك قيم تنتجها عصور معينة في كل مجتمع، وهي تخص هذا المجتمع والمجتمعات الماثلة له. والدليل على ذلك أن هناك من يتحدث عن (عالم إسلامي) واحد، كما أن هناك من يتحدث عن (مجتمع أفريقي) أو (مجتمع آسيوي)، فهذا التعميم مضلل، لأن الحقيقة أن هذا (العالم الإسلامي) يتكون من أكثر من خمسين دولة، وكل دولة منها تطبق مجموعة من النظم الشرعية والسياسية تختلف عما في بعضها الآخر، ولا يوجد هيكل واحد يجعل هذه الدول عالماً واحداً بالمعنى الدقيق لهذا المصطلح، كما أنه ليست هناك دولة منها يمكن أن تدعى أنها هي (النموذج) أو التجسيد للقيم الإسلامية، مع أن كل دولة تقول ذلك. والدين الإسلامي ليس فيه سلطة دينية لاهوتية مركزية واحدة كما في الكاثوليكية، فليس في العالم الإسلامي (بابا) يخضع له الجميع ويأتمرون بأمره. والأزهر في مصر هو المؤسسة الوحيدة التي تعبّر عن الإسلام السني، ولكن ليست له سلطة على جميع المسلمين في العالم، وأوامره ليست ملزمة. وكثير من رجال الدين الإسلامي في مصر ذاتها وفي خارج مصر يختلفون في الفتاوى والأحكام التي يصدرها. وجامعة الأزهر هي جامعة أكاديمية مثل غيرها من الجامعات في دول العالم ذات الطابع الديني..

ويعزز هاليداي رأيه فيقول: إن هناك كثيرين يريدون أو يدعون أنهم يتحدثون باسم الإسلام وهم ليسوا كذلك. فما يقال في السعودية يختلف عما يقال في تونس، والتفسير أو الفتوى من أحد

علماء الدين في بلد إسلامي لا يمثل تفسير وفتاوى سائر علماء المسلمين، فكل واحد من العلماء المسلمين يتحدث عن نفسه ويعبر عن فهمه الخاص. وهناك من يحاولون استنباط القوانين العلمية من القرآن في الكيمياء والفيزياء والهيدروليكا والمغناطيسية وفي المحاسبة والإحصاء وغيرها، وغيرهم يحاولون استنباط مبادئ حقوق الإنسان من القرآن والسنة، بينما يرفض علماء مسلمون على ذات المستوى من العلم والكفاءة هذه المحاولات. ويرى هؤلاء أن الدين دين والعلم علم والسياسة سياسة ويجب عدم الخلط بينها وإعطاء كل شيء صبغة دينية لأن ذلك ليس في صالح الدين.. وعلى مدى التاريخ الإسلامي هناك فقهاء متشددون وفقهاء متحررون. هناك فقهاء إصلاحيون ومجددون وفقهاء يرفضون الإصلاح والتجديد ويتمسكون بكل ما في التراث من آراء القدماء دون أن يتزحزحوا عنه قيد أنملة. وهناك من يقبل فكرة فصل الدين عن شؤون السياسة وإدارة الدولة وهناك من يرفض ذلك. والخلاصة - في رأيه - أنه ليس هناك مجتمع إسلامي واحد ولكن هناك مجتمعات إسلامية متعددة. وليس هناك قيادة إسلامية واحدة ولكن هناك قيادات إسلامية محلية لكل بلد. وليس هناك فقه واحد ولكن هناك مدارس فقهية بينها اختلافات، وليس هناك تفسير واحد ولكن هناك أكثر من تفسير. وكل ذلك يحسب للإسلام ولا يحسب عليه، لأنه يسمح بتعدد الاجتهادات في الأحكام والاختلاف في الفهم والاستنباط، وإن كان هناك إطار واحد يجمع الكل هو القرآن.

ويخلص هاليداي من ذلك إلى أنه ليس من حق أية جماعة أن تدعى أنها هي التي تمثل الإسلام وأن غيرها لا يمثلها، أو أنها هي وحدها التي تمتلك الحقيقة في فهم وتفسير الإسلام دون غيرها. ويرى من ذلك أن محاولة (أسلمة) كل شيء ليس موقفاً إسلامياً صحيحاً لأن القاعدة التي وضعها نبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم) للمسلمين هي: (أنتم أعلم بشئون دنياكم). وإن كانت بعض الدول تعلن الادعاء بتمثيل الإسلام فإنها تسعى بهذا الادعاء إلى إحراز مكاسب خاصة ونفوذ سياسي من وراء ذلك.

وعلى ذلك فإن نظم الحكم التي تمارس القمع وانتهاك حقوق الإنسان لا يمكن قبول ادعائها بأنها تطبيق بذلك الشريعة الإسلامية. والذين يطالبون بتفسير للإسلام أكثر اعتدالاً وتحرراً وتوافقاً مع التطورات العالمية ليسوا زنادقة ولا خارجين على الإسلام كما يدعى المتشددون (المتأسلمون).



ويبدى هاليداي ملاحظته على معظم المعبرين عن التيار الإسلامي الذين يعلنون رفضهم لثقافة وحضارة الغرب. ومع ذلك فإنهم يستخدمون المفاهيم والمصطلحات الغربية مما يدل على اتصالهم وقبولهم وتفاعلهم مع ثقافة الغرب. فهم مثلاً يتحدثون عن (ازدواجية المعايير) عندما يشيرون إلى ادعاء الولايات المتحدة بأنها تدافع عن حق الشعوب في تقرير مصيرها بينما ترفض أن يكون للفلسطينيين هذا الحق، وادعائها بأنها تدين انتهاكات القانون الدولي ومبادئ حقوق الإنسان في

الدول الإسلامية وتسمح باستمرار انتهاكات الاحتلال الإسرائيلي في الأراضي الفلسطينية والسورية منذ عام ١٩٦٧، وادعائها بأن المقاومة الوطنية للاحتلال (إرهاب) بينما هي التي تشجع إرهابيين في دول أخرى على أنهم (مقاتلون من أجل الحرية)، وادعائها الدفاع عن سيادة الدول وهي تنتهك سيادة الدول وتسمح لنفسها بغزو الدول.. وهذه الانتقادات للمواقف والسياسات الأمريكية صحيحة ولكن المهم أن المسلمين الذين يرفضون الثقافة الغربية يستخدمون لغة ومبادئ وقيم الثقافة الغربية في نقدهم للولايات المتحدة وللغرب عموماً. وهذا يؤكد أن (النسبية الثقافية) لا تمنع من (التواصل والتفاعل الثقافي). فالنسبية الثقافية عند المسلمين لا تعني الانعزال، كما لا تعني التفرد الثقافي.

ويرى هاليداي أن الدول الإسلامية تقابل النقد الموجه إليها من الغرب في مسألة انتهاك حقوق الإنسان بردود أفعال سلبية، إما بالقول بأن دول الغرب لها سجل إمبريالي ملئ بالانتهاكات لحقوق الإنسان، أو بتكرار الحديث عن الانحدار الأخلاقي في حضارة الغرب فيما يتعلق بالجريمة والعلاقات الجنسية ومعاملة العجزة وكبار السن إلى آخر القائمة الشائعة في كتابات المسلمين. ومن أمثلة ذلك ما قاله وزير الخارجية الإيراني (علي أكبر ولاياتي) في كلمته أمام الأمم المتحدة عام ١٩٩٣، هجوماً على الغرب لسعيه إلى فرض القيم غير الإسلامية على العالم الإسلامي، ربط ذلك بالأزمة الأخلاقية والحرية المنفلتة بغير حدود في الغرب. وجاء في كلمته: (إن بعض الدول الغربية أرادت أن تفرض انحدارها الأخلاقي والاجتماعي على الدول الأخرى، بينما تعترف هي نفسها بهذا الانحدار، ولكنها تغلفه بغلاف جذاب هو حقوق الإنسان).

وحين أشار تقرير لجنة حقوق الإنسان في الأمم المتحدة إلى انتهاكات حقوق الإنسان في إيران وجّه المسئولون والصحافة في إيران هجومهم إلى دول الغرب على أنها تتلاعب بشعار حقوق الإنسان لأهداف سياسية، بينما تسكت في نفس الوقت عن الاعتداءات على حقوق الإنسان في فلسطين وفي البوسنة وفي غيرها، وقال وزير خارجية إيران أمام الأمم المتحدة: (إن الطريق الوحيد لتعزيز مبادئ حقوق الإنسان في أنحاء العالم هو إنهاء المعايير المزدوجة التي يمارسها الغرب وعدم استغلال قضية حقوق الإنسان لأغراض سياسية، ووضع آلية دولية مستقلة غير متحيزة للتحقق من احترام حقوق الإنسان في جميع دول العالم دون استثناء بما في ذلك الدول الغربية نفسها).

ويعلق هاليداي على ذلك باتفاقه على أن دول الغرب تمارس ازدواجية المعايير وتسمح لنفسها بما تستنكره من غيرها، ويؤكد على أن انتهاكات حقوق الإنسان في الدول الإسلامية مسألة تتعلق بالسياسة ونظم الحكم وليست لها علاقة بالدين الإسلامي أو بالخصوصية الثقافية. ويقول: إن الإسلام دين موجه إلى كل البشر وليس موجهاً إلى شعوب معينة دون غيرها، وبالتالي فليس في العقيدة الإسلامية أية إشارة أو دعوة إلى انتهاك حقوق أية فئة أو أية شعوب. والذين يدرسون الإسلام بحياد ودون انحياز يدركون أنه - على عكس ما هو شائع في الفكر الغربي - دين يحترم

الإنسان لمجرد أنه إنسان بصرف النظر عن العقيدة أو اللون أو الجنس، وينظر إلى الناس جميعا على اختلاف لغاتهم ودياناتهم على أنهم متساوون. ولكن الصدام ينشأ بين الغرب والإسلام لسبب آخر - غير حقوق الإنسان - هو أن السلوك الغربى الآن هو السلوك المعترف به دوليا على أنه السلوك الحضارى الذى يجب أن ينتشر فى العالم، فى إطار (العالية) أو (العولة) الاقتصادية والثقافية، بينما الإسلام دين موجه إلى كل البشر، فهو أيضا يدعو إلى (عالية) أو (عولة) مختلفة. ومن هنا نشأ الصراع، فهو صراع بين مفهومين، أو شكلين، من مفاهيم وأشكال العالمية أو العولة.



وينبئه هاليداي إلى أن المسلمين أنفسهم يشاركون فى المسئولية عن الالتباس فى المفاهيم والقيم الإسلامية، وذلك بإضفاء الصفة الشرعية الإسلامية على عادات وتقاليدها الاجتماعية تعبر عن مجتمعات بعينها وليست من أصول عقيدة الإسلام، مثل (شرف القبيلة) ونظام القبيلة ذاته الذى يصل التمسك به إلى حد التعصب فى أفغانستان وباكستان، ومثل ممارسة ختان الإناث فى المجتمعات الإسلامية، فهى عادات وليست عبادات، ولكن المسلمين يصبغونها بالصبغة الإسلامية وكأن من يخرج عليها يكون خارجا على الدين الإسلامى، ومثل حرمان المرأة من تولى مناصب معينة وممارسة حقوقها السياسية.

ويبدى هاليداي ملاحظة يرى أنها تمثل عاملا من عوامل سوء الفهم على الجانبين الإسلامى والغربى، وهى وجود تيار إسلامى يريد أن يغير الثقافة الغربية، ويغير الفكر والسلوك والقيم ويجعل كل شئ ذا طبيعة إسلامية حتى الملابس والطعام، ويتجاهل أسلوب الحياة الغربى المتأصل والذى لا يمكن للغربيين التنازل عنه لأنهم يرون أنهم وصلوا إليه بعد مراحل عديدة من النضال والتطور. ولا يريد أنصار هذا التيار الاقتناع بأن القانون الإلهى يحدد للبشر الطريق إلى الإيمان بالله وما يترتب على ذلك من أوامر ومحظورات إلهية محددة على سبيل الحصر فى النصوص المقدسة، أما بقية شئون الحياة فهى متروكة لدرجة التطور التى يصل إليها كل مجتمع ما دامت لا تتعارض مع الأصول والمبادئ الأساسية فى العقيدة.

هاليداي إذن يطالب المسلمين بالترقية بين ما هو سياسى واجتماعى وثقافى وبين ما هو دينى، وعدم الخلط والتوسع مما يجعل عدم ارتداء ملابس معينة، أو عدم إطلاق اللحية، أو عدم ختان البنات، خروجاً على الشريعة الإسلامية وكفراً يستوجب العقاب فى الدنيا والآخرة، مع أن المسلمين يسايرون الحضارة العالمية ويستخدمون الكمبيوتر والتليفون والكهرباء كما يستخدمون فى بيوتهم الأجهزة الكهربائية، ويركبون السيارة والقطار والطائرة، وكذلك فإنهم يستخدمون (الأسانسير) وغير ذلك كثير من منتجات وتجليات الحضارة الغربية ولا يرون أنها تخالف الشريعة. كذلك

يأخذ الغرب بعض العادات والأفكار الإسلامية ويستوعبها في حضارته، مما يعنى أن التواصل قائم، وأن الأخذ والعطاء والتفاعل من الأمور الطبيعية فى العالم، بحيث لم يعد ممكناً أن يكتفى مجتمع بنفسه ويستغنى عن غيره، ولذلك فإن مقولة (إن الشرق شرق والغرب غرب ولن يجتمعا) التى كانت تتردد قديماً لم تعد مُعبّرة عن الواقع، لأن الشرق والغرب يمكن أن يجتمعا، ومن مصلحة كل منهما أن يجتمعا.



ويتساءل هاليداي: هل صحيح ما يردده بعض مفكرى الغرب من أن الإسلام يرفض الديمقراطية، وأن نظامه السياسى الإسلامى قائم على القمع والديكتاتورية، وهؤلاء يستشهدون بعدد من الدول التى تقدم نفسها للعالم على أنها دول تطبق نظام الحكم الإسلامى بينما هى تطبق الديكتاتورية التى تخلو من أى مظهر من مظاهر الديمقراطية والحريات. ويجيب: إن هذه النظم تدعى أنها قائمة على الشرعية الإسلامية، وأنها تحكم بسلطة إلهية، وأن الخارج عليها خارج على حكم الله، ولكنها- عند التحليل- ليست سوى نظم سياسية متخلفة أشبه بما كانت عليه دول الغرب منذ قرون حين كانت نظم الحكم الديكتاتورية تمارس الاستبداد باسم الدين وتدعى أنها تستمد سلطتها من الكنيسة وباسم المسيح. وفى مثل هذه الحكومات تنتشر السجون وعمليات التعذيب والقمع والإعدام وإباحة قتل المعارضين وفرض الرأى الواحد واعتبار التعددية فى الرأى خروجاً على الدين. هذه الحكومات تفرض على جميع مواطنيها أن يرددوا خطاب السلطة وأفكارها. وتحتكر هذه الحكومات سلطة تحديد ما هو حلال وما هو حرام. هذه الحكومات تفرض على الشعوب نوعاً من الغيبوبة الفكرية بحيث يفقد الإنسان الفرد ملكة التفكير المستقل، ويرفض الأفكار المخالفة لأفكار السلطة كما يرفض الاستفادة من ثقافات ومجتمعات أخرى.

المجتمعات الإسلامية إذن - وفقاً لتحليل هاليداي - ترفض الاندماج فى المجتمع العالمى بحجة الحفاظ على الخصوصية والهوية والشخصية الإسلامية المتميزة، ولكنها فى نفس الوقت لا تستطيع أن تمنع نفسها من التأثر بالحضارة العالمية، والأخذ منها والاعتماد عليها فى كثير من شئون حياتها. وهذا ما يجعل الأمر يبدو وكأنه صراع أو تناقض بين الغرب والإسلام، فتظهر على السطح تيارات الرفض للغرب حيناً، وفى حين آخر تظهر تيارات القبول والتفاعل، والمفروض أن يتحرك المفكرون والقادة فى الغرب والعالم الإسلامى معاً لإزالة هذا التناقض والتوصل إلى صيغة للتعايش والتعاون وتبادل المنافع دون تبادل الاتهامات. وهذه دعوة تستحق التفكير.



يعترف هاليداي بأن الشعوب الإسلامية لديها أسباب تدعوها إلى عدم الثقة فيما يردده الغرب عن الديمقراطية والحريات وحقوق الإنسان والعدالة، بينما تسعى دول الغرب هذه إلى الهيمنة على

الشعوب الصغيرة واستغلال ثرواتها ولا تطبق المعايير الأخلاقية إلا على الشعوب الغربية وتطبق على شعوب العالم الثالث معايير وقيماً أخرى على النقيض. وفي نفس الوقت يرى أن الخطاب الإسلامى الموجه للغرب يجب أن يخفف من اللهجة العدوانية ومن اتهام المجتمعات الغربية بأنها مجتمعات جاهلية فاسدة. فإن مثل هذه الأفكار تؤدي إلى سوء الفهم، وإلى سوء التفاهم ثم إلى العداء. ولا بد أن يقوم التعاون الدولي سياسياً واقتصادياً وثقافياً على أساس التسامح الدينى وقبول الاختلاف.



ولأن البروفيسور فريد هاليداي أستاذ للعلاقات الدولية فإنه يستخدم فى تحليله لظاهرة العداء للإسلام النهج التكاملى الذى ينظر إلى هذه الظاهرة من زاويتين هما: الدين، والسياسة، وفى رأيه أن هذا العداء مرتبط بمصالح الغرب الاقتصادية والسياسية أولاً، وبالتارىخ القديم من الحروب والصراعات ثانياً، وبانحياز الغرب لإسرائيل وقبوله لسياستها فى اغتصاب أرض الفلسطينيين، وقتلهم، وإنزالهم.

ولا ننس أن بات بوكانان Pat Buchanan أعلن فى حملة انتخابات الرئاسة الأمريكية عام ١٩٩٢. «أنه فى مراحل سابقة من تاريخ البشرية كان الصراع بين المسيحية والإسلام، وفى القرن الحادى والعشرين سوف يتكرر هذا الصراع مرة أخرى. فالجهادون المسلمون الذين وصلوا بقواتهم إلى أبواب فيينا عاصمة النمسا فى القرن السابع عشر، هل سيكررون ذلك فى القرن الحادى والعشرين؟». بوكانان يرى أن الإرهاب يهدد الغرب تحت راية الإسلام وباسم الجهاد، أما هاليداي فإنه يرفض هذا التصور لخطورة الإسلام على الغرب، ويطالب المفكرين بالبحث عن الأسباب الحقيقية للتوتر فى العلاقات بين العالم الإسلامى والغرب عموماً، والولايات المتحدة على وجه الخصوص. والبداية الصحيحة لذلك كما يراها هى تفهم أوضاع العالم الإسلامى، وسياسات الغرب تجاهه. بينما يتجاهل أصحاب نظرية التهديد الإسلامى للغرب دراسة طبيعة الدول الإسلامية، وانتشار نظرية المؤامرة فى الثقافة السياسية فى العالم الإسلامى، والصعوبات فى إقامة نظم ديمقراطية فى الدول الإسلامية، والفوضى التى تعم العالم الإسلامى نتيجة السياسات الامبريالية والسعى إلى الهيمنة وتأثير ذلك على العقل والثقافة والتوجهات والشاعر فى العالم الإسلامى. كذلك فإن هاليداي حريص على إبراز حقيقة مهمة، هى أن الظواهر السياسية والاجتماعية التى تعتبر مرفوضة من الغرب، ليست مقصورة على العالم الإسلامى، ولكنها موجودة فى مجتمعات أخرى غير إسلامية، مثل أمريكا اللاتينية، والصين، واليونان، وحتى فى الولايات المتحدة نفسها.

ويرى هاليداي أن نظرية المؤامرة فى العالم الإسلامى لها مبرراتها التاريخية والثقافية ويجد القائلون بها أدلة كثيرة على صحتها من الحروب واستنزاف الثروات من جانب الغرب، ومن

محاولات التأثير الثقافي لتغيير ثقافة العالم الإسلامي. وإذا نظرنا إلى تأثير النظم الديكتاتورية على النشاط الاقتصادي، وعلى علاقات الدول الإسلامية بالدول الديمقراطية في الغرب، وعلى قمع الأفكار الإصلاحية ورفض التطور، فسوف نجد أن ذلك كله يصطبغ بصبغة إسلامية، وهذا ما تفرضه السلطة الحاكمة وليس ما يفرضه الدين الإسلامي وتسيئ السلطة استغلال الأمر الوارد في القرآن للمسلمين بطاعة الله وطاعة رسوله وأولى الأمر، وبناء على ذلك يسيئون استخدام السلطة ويعتبرون كل نقد أو معارضة أو مطالبة بالإصلاح خروجاً على الطاعة الواجبة التي قررها الله، وهذا المفهوم للسلطة يروج له الحكام ولا يعبر بدقة عن القصد الإلهي من الطاعة. ومع ذلك فهناك دول إسلامية فيها قدر من الديمقراطية والليبرالية والانفتاح الاقتصادي والثقافي، وهذا يدل على أن الديمقراطية يمكن أن تنمو في المجتمع الإسلامي.

يقول هاليداي: إن منطقة الشرق الأوسط ليست نشازاً عن السياق العالمي، ولكن الذي يجعلها تبدو كذلك مجموعة الخرافات التي يروج لها كثيرون في داخل المنطقة وخارجها. ولا بد أن يدرك كل من يتحدث عن الشرق الأوسط أن هذه المنطقة تعيش شعوب فيها لها تاريخ طويل، وثقافة عريقة، وتراث حضارى ممتد عبر العصور، وهى شعوب لها إرادتها ومصالحها وطموحاتها، وهى تعاني من الظلم المفروض عليها من الخارج والداخل. ولا بد من إعادة دراسة العالم الإسلامى بروح جديدة، فيها الحياد والإنصاف والموضوعية.. ولا نزل أسرى للأفكار الجاهزة التى يتناقلها الباحثون دون فحص وتمحيص، لأن هذه الأفكار الجاهزة تعوق سير العلاقات بسلاسة بين دول الغرب والدول الإسلامية، مع أن الدول الإسلامية ذات أهمية كبيرة جداً للغرب ولمصالحه. ومن الضروري عند دراسة العالم الإسلامى ألا يتم ذلك بالمعايير والمفاهيم الغربية وحدها، وأن نراعى ظروف هذا العالم ودرجة التطور التى وصل إليها كل مجتمع من المجتمعات الإسلامية، فليست كل الدول الإسلامية على درجة واحدة من التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى والثقافى.

ويتوقف هاليداي عند الآيتين الكريمتين ﴿ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ الْنَصْرَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿ (البقرة ١١٢-١١٣) وفيهما دعوة للتعايش بين الأديان وترك الحكم على أيهما الأصلاح لله وحده، ولن يكون ذلك إلا يوم القيامة كما قال الله فى كتابه. كما يشير إلى الآية الكريمة ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة ١٣٦) وهى دليل على أن الإيمان بالإسلام يقتضى الإيمان بجميع الأنبياء

والرسل والكتب والأديان السابقة عليه. والآية الكريمة: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَكَافَّةٍ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (البقرة ٢٠٨) وهى دعوة صريحة قاطعة للمسلمين لى ينحازوا إلى السلام وليس إلى الحرب أو العدوان أو الإرهاب. ويدعو هاليداي المفكرين فى الغرب إلى تأمل الآية الكريمة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ (الحجرات ١٣) ويقول إنها قمة التعبير عن المساواة بين الرجل والمرأة عند الله، وقمة الدعوة إلى الحوار والوفاق والتعاون بين الشعوب، فإذا كانت هذه هى دعوة الإسلام فلماذا لا يتفهمها الغرب ويتعامل مع المسلمين بما يتفق معها؟!.

عامل آخر تسبب فى الجفوة ثم العداء- بين الإسلام والغرب هو انحياز الغرب لإسرائيل ضد العرب والمسلمين، منذ هجرة اليهود الجماعية إلى فلسطين فى أواخر القرن التاسع عشر، وإقامة دولة إسرائيل عام ١٩٤٨، والمذابح التى ارتكبتها الإسرائيليون للمسلمين أثناء الصلاة، وأكبرها المذبحة التى قام بها الإرهابى الإسرائيلى باروخ جولدشتين فى المسجد الأقصى فى فبراير ١٩٩٤ وقتل ٢٩ مسلما أثناء صلاة الفجر. هذه المذبحة فى نظر المسلمين تمثل ذروة العداء للإسلام والمسلمين، وأكدت تحذير القرآن للمسلمين من اليهود، كما أكدت المخاوف ممّا يراه المسلمون من إقامة دولة يهودية على أرضهم واحتلال أراض أخرى والاعتداء على المساجد، وقد تسبب كل ذلك فى نشأة اعتقاد لدى المسلمين يترسخ منذ عقود بأن إسرائيل أنشأها الغرب بدافع العداء للمسلمين، وأنها مؤامرة من الغرب لاغتصاب أوطان المسلمين. ويغذى هذا الشعور ما يعلنه القادة الإسرائيليون والحاخامات من أن العرب هم الأعداء القداماء لإسرائيل، ويستدعون قصة العماليق المذكورة فى القرآن، وما فى التوراة من دعوة إلى قتل كل (الأغيار) أى غير اليهود.

ويرى هاليداي أن العلاقة بين المسلمين واليهود علاقة معقدة لها جذور تاريخية قديمة، ولا يمنع ذلك وجود الأصوات المناهية بالتسامح ونسيان الماضى. وفى نفس الوقت، كانت المجتمعات الإسلامية أكثر تسامحا وقبولا لليهود من المجتمعات الغربية، فقد عاش الكثير من اليهود مع المسلمين على قدم المساواة فى المجتمعات الإسلامية، بل كانت لهم مكانة متميزة فى بعض العصور، ولم تكن لهم مثل هذه المكانة أبدا فى المجتمعات المسيحية، حتى إن الأعداد الكبيرة من اليهود الذين طردتهم أسبانيا لم يجدوا أرضا تأويهم إلا أراضى الدول الإسلامية. ولم يظهر العداء إلا متأخرا، أما فى عصور الدولة الإسلامية - الأموية والعباسية وما بعدهما - فقد كان لليهود إسهامات كبيرة فى الثقافة والأدب والفكر والسياسة. ولا ننسى أن الطبيب الخاص للقائد الإسلامى صلاح الدين الأيوبي الذى طرد الصليبيين من القدس كان يهوديا. وفى العصر

الحديث لم تكن المحارق والمعتقلات والاضطهاد لليهود في دول إسلامية ولكنها كانت في دول غربية، ولكن مع ظهور الحركة الصهيونية بدأت المواجهة بين اليهود والعرب، وظهر عداة اليهود للعرب ليس لأنهم مسلمون ولكن لأنهم (أغيار). وتنافس الكتاب اليهود في تشويه صورة العالم الإسلامي. وعلى سبيل المثال ما نشره في الغرب من مقارنة حكم عبد الناصر في مصر بحكم هتلر في ألمانيا، والادعاء بأن هذا النظام كان يريد إلقاء اليهود في البحر. وليس ذلك جديداً فقد ظهرت لغة جديدة لليهود عند الحديث عن العرب منذ العقد الأخير من القرن التاسع عشر حتى إنهم كانوا يسمون العرب في فلسطين (الحمير).



والشروع الصهيوني - كما يقول هاليداي - قام على أساس طرد العرب - المسلمين والمسيحيين - من أرضهم في فلسطين. وهكذا قام هذا المشروع على إنكار حقوق وإنسانية العرب في فلسطين على أساس عرقي (عنصري). وكان شعار: (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض) يحمل الرفض والنفي والعداء للفلسطينيين. وعبر عن ذلك الشاعر الصهيوني الأول (بن يهودا) بقوله: (كم هي جميلة إسرائيل بدون عرب). وكان شعور اليهود الأوروبيين المهاجرين إلى فلسطين في البداية أنهم طليعة للحضارة الأوروبية في مواجهة المتخلفين الهمج الذين وجدوهم في فلسطين. ولم يكن ذلك التوجه مختلفاً عن توجه المستوطنين الأوروبيين البيض في جنوب أفريقيا وغيرها من دول العالم الثالث، وكان ذلك تعبيراً عن (غور الحضارة). ولم يكن التحامل على العرب وحدهم، بل كان أيضاً على اليهود الشرقيين الذين اعتبروهم غير متحضرين مثل العرب وإن كانوا أفضل منهم بقليل لأنهم يهود. وهناك مفردات في اللغة العبرية كان اليهود الغربيون يستخدمونها للإشارة إلى اليهود الشرقيين مثل: راع وسفاحون - وساكنو الكهوف - ووثنيون - ومتعصبون - ووصل الأمر إلى أن الجنرال مردخاي جور رئيس الأركان الإسرائيلي الأسبق حين كان مرشحا عن حزب العمل وجه تحذيراً إلى مجموعة من اليهود الشرقيين مؤيدي حزب الليكود الذي كان في المعارضة قال لهم فيه: (سندمرم كما دمونا العرب في حرب الأيام الستة). وكانت الأعمال الفاشلة يشار إليها بمصطلح: (Avada Aravit) ومعناه (عمل عربي) أي عمل عشوائي وفاشل وغير متقن. كذلك أصبح مصطلح (Shluhim) ومعناه ساكنو الكهوف يطلق على اليهود العرب المهاجرين من المغرب إلى إسرائيل.

يستخلص هاليداي بعد استعراض مظاهر عداة الإسرائيليين للعرب والمسلمين أنهم يعبرون عنه بلغة عنصرية تجاه غير اليهود عامة ولأصحاب الأصول العريية على وجه الخصوص. ولكن بعد حرب ١٩٦٧ نشأت درجة من العداة ذات طبيعة خاصة، وازدادت بعد الثورة الإيرانية الإسلامية. ففي أعقاب حرب ١٩٦٧ واحتلال إسرائيل لأراضي الضفة الغربية وغزة بدأ الحاخامات المتشددون يقدمون التبرير الديني ويستعيدون التراث اليهودي لتبرير الاحتلال وممارسة العنف ضد العرب،

وعبر عن ذلك الحاخام الأكبر للجيش الإسرائيلي صموئيل ديرليتش في رسالة وجهها للجنود قال فيها: إن حربهم ضد العرب مهمة دينية وردت في التوراة وفرضت على اليهود (تدمير العماليق). وعندما اعترض على ذلك بعض القادة كتب أربعون من كبار الحاخامات رسائل دفاعا عن هذه العقيدة وأكدوا أنها مُعبّرة عن الشريعة اليهودية. ومنذ منتصف السبعينات من القرن العشرين لعبت أحزاب اليمين الديني دورا كبيرا في توجيه السياسات الإسرائيلية، ونشرت المشاعر العدائية تجاه غير اليهود، وجاءت الثورة الإيرانية لتزيد هذا العداء بعدائها الواضح لوجود إسرائيل، وتأييد الشيعة في لبنان لهذا الاتجاه منذ عام ١٩٨٢ (حزب الله) ونشأة حركة المقاومة الإسلامية (حماس) حتى إن إسرائيل بدت في أواخر الثمانينات على أنها في معركة مع العالم الإسلامي. ومع ذلك فقد فاقت حركة (كاخ) الصهيونية كل ما عداها في درجة العداء للعرب. وهي الحركة اليهودية المتطرفة التي أنشأها الحاخام (مائير كاهانا) وكان لها تأثيرها على السياسة الإسرائيلية منذ أوائل التسعينات من القرن العشرين وحتى اغتيال كاهانا في نيويورك عام ١٩٩٠. فقد أرسى كاهانا مفهوما عدوانيا للتلمود يفرض قتال غير اليهود، وكانت دعوته الأساسية هي طرد العرب بالقوة من إسرائيل. وقد كاهانا مشروع قانون يحرم إقامة علاقة جنسية بين اليهودي أو اليهودية وغير اليهودية أو غير اليهودي، ويرفض منح الجنسية أو صفة المواطن في إسرائيل لغير اليهود. وكان أنصاره يرددون الهتاف: (الموت للعرب وأصدقائهم اليساريين اليهود).



كانت لغة كاهانا مليئة بالكرهية بدرجة تثير الاشمزاز مثل قوله: (العرب سرطان.. سرطان.. سرطان.. موجود معنا، ولكن ليس في إسرائيل رجل يريد الاعتراف بذلك.. إنني أخبركم بما يفكر فيه كل منكم ويشعر به في أعماق قلبه ولا يوجد حل سواه: فليخرج العرب.. لا تسألوني كيف.. دعونى أصبح وزيرا للدفاع لمدة شهرين فقط ولن تجدوا هنا أحدا من هذه الصراصير.. أعدكم بأن أجعل إسرائيل نظيفة). وفي هذا السياق أصبحت اللغة المعادية للعرب والمسلمين يتم تداولها علنا في إسرائيل، وخاصة بين المستوطنين في الضفة الغربية، وأحزاب اليمين الديني والسياسي. وأصبح هؤلاء يستشهدون كثيرا بالآيات (٥-٩) من المزمور (١٤٩) الذي يتلى في صلاة الصباح اليهودية ويقول: (دع تسبيحات المولى تكون في أفواههم، وسيفا ذا حدين في أيديهم للثأر من الذين يدينون بالوثنية، ولفرض العقوبات على دولهم وتقييد ملوكهم ونبلائهم بسلاسل من حديد). وكانت هذه الآيات تستخدم لإثارة المستوطنين للهجوم على الفلسطينيين، وانتشرت على الجدران عبارات عدائية مثل (الموت للعرب) و(اصنعوا اللحم المفروم من لحم العرب). وفي جنازة المتطرف اليهودي باروخ جولدشتين الذي ارتكب مذبحه المسجد الأقصى أعلن أحد الحاخامات: (إن مليون عربي لا يساؤون ظفر يهودي واحد). ومثل هذه الروح منتشرة في المؤسسات الدينية وحاخامات الجيش

وزعماء الأحزاب اليمينية وقادة المستوطنين. وعبر عن هذه الروح الحاخام موردخاي عيديا حين طالب الحكومة بالسماح باستخدام أعضاء العرب الذين يقتلهم الجيش الإسرائيلي في زراعة أعضاء للمحتاجين إليها من اليهود، ذلك لأن استخدام الأعضاء البشرية من أجسام اليهود حرام بالنسبة للتفسير اليهودي القائم على قداسة اليهود. وكذلك أعلن الحاخام عوفاديا يوسف رئيس حزب شاس الديني رأيه بوضوح في خطبة قال فيها: (إن العرب أسوأ من الحيوانات المتوحشة). وإن كانت مثل هذه العبارات لا تظهر على ألسنة السياسيين الإسرائيليين إلا أنها - مع ذلك - عبارات منتشرة في قطاع مؤثر يشعر بأنه يستطيع أن يصرح بهذه الآراء وينشرها دون خوف من الاعتراض القانوني أو السياسي عليها.

ويبدى هاليداي دهشته لأن الذين يعلنون العداء للمسلمين في إسرائيل، هم أنفسهم الذين يكررون الشكوى من وجود عداء من المسلمين لليهود وينبشون في التوراة عما يؤيد دعواهم. وينشرون في العالم أن المسلمين جميعا يشعرون بالعداء لليهود، وفي المقابل فإن كثيرا من المسلمين يعتقدون بأن اليهود أعداء الإسلام، وفي ذلك تشويه للتاريخ الحقيقي للعلاقة بين الإسلام واليهود، وهناك ادعاء قوى بأن العداء للسامية يتزايد في العالم العربي والإسلامي. ويستخدم الإسرائيليون المتشددون هذا الادعاء بالقول بأن الفلسطينيين مثل النازيين، أو بأنهم مثل الفلاحين في أوكرانيا الذين قتلوا اليهود في مذابح رهيبية في القرن السابع عشر. ولا يمكن إنكار وجود جذور للعنصرية المعادية للعرب لدى اليهود المتطرفين ومثالهم الحاخام مائير كاهانا. وتظهر كذلك في نيويورك في المشاعر المعادية للعرب مختلطة بالعداء للنازية وللأسود. وكان شعار كاهانا (إن العرب هم آخر أعداء اليهود). والوقائع والنماذج كثيرة في مذابح ارتكبتها الإسرائيليون على مدى أكثر من نصف قرن، وشخصيات مثل حاييم وايزمان، وبن جوريون، وبلفور، وبييل، وعلى الجانب الآخر نجد عبد الناصر والخميني كما يقول هاليداي.

فالعداء للعرب - كما يقول - ظاهرة أيديولوجية في إسرائيل.



ولا بد أن نذكر للبروفيسور فريد هاليداي شجاعته في التحليل العلمي لظاهرة العداء للعرب والمسلمين في الغرب والتحذير من انتشار هذه الأيديولوجية وما يترتب عليها من سياسات اقتصادية وعسكرية. وكذلك لا بد أن نشيد بوقفته للتصدي لما في الصحافة والخطاب السياسي في الغرب من تحامل على العرب والمسلمين، وإعلان شعوره بالخزي مما ينشر ويقال.

ولا بد أن نذكر له كتاباته المتميزة للتفرقة بين العداوة في الماضي لأسباب مختلفة لم تعد قائمة الآن، وضرورة تجاوز هذا التاريخ القديم من الحروب والاستغلال والكراهية والنظر إلى الحاضر بعيون أخرى وبروح جديدة للتسامح والتعاون. وكذلك عدم التوقف عند ظواهر اجتماعية معينة

ونسبتهأ إلى الإسلام دون النظر إليها فى سياقها الاجتماعى والسياسى. فليس من الموضوعية ربط الإسلام بالإرهاب، أو باضطهاد المرأة، أو بكراهية الآخر.

وفى نفس الوقت لا بد أن نحترم الآراء التى توصل إليها وألقى فيها اللوم على المسلمين فى بعض الأمور، واشتراكهم فى المسئولية عن ظهور ونمو هذا العداء، مثل قول بعض الفرق الإسلامية: بأن الإسلام يجب أن يسود الغرب بالدعوة أو بالقوة، أو الإعلان عن عدائها للغرب وسعيهم إلى تدميره، لأن هذه الأقوال وأمثالها تعطى المبرر لتيار العداء للإسلام فى الغرب وتغذيه، وتقنع الرأى العام فى الدول غير الإسلامية بأن الإسلام خطر عليها ويجب شن الحرب الدفاعية ضده، خاصة مع رواج نظرية أن الإسلام هو الأيديولوجية الباقية المعادية للغرب بعد انهيار الأيديولوجية الشيوعية.

وحين يتساءل هاليداي: من أين تأتى الأفكار الخاطئة على الجانبين؟

يصل إلى أنها تأتى من مجموعة من الأحداث والمواقف والأزمات، ومن الخطاب الدينى والسياسى هنا وهناك، والتى يعمد السياسيون وأصحاب المصالح إلى استغلالها والتهويل من خطورتها لى يبرروا مشاعر العداء ونوايا العدوان.